75

محمد قطب

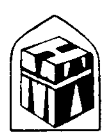
ماذا يعطي الإسلام للبشرية





محمد قطب

ماذا يعطي الإسلام للبشرية



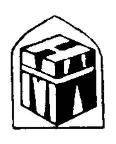
دار الرعاية الإسلامية



ISBN 0 906194 02 4

What Islam can offer Humanity

Published in 1977 ©



Muslim Welfare House, London
233 Seven Sisters Road
London N4 2DA

« بسم الله الرحمن الرحيم »

ماذا يعطي الاسلام للبشرية

في محاضرة ألقاها المؤرخ الشهير « أرنولد توينبي » سنة ١٩٤٨ بعنوان « الاسلام والغرب والمستقبل » قال :

« وهنا . وعلى عتبة المستقبل . نلحظ إذن تأثيرين قيمين يستطيع الإسلام ان يمارسهما على البروليتاريا العالمية للمجتمع الغربي الذي ألقى شباكه حول العالم . وضم البشرية جمعاء » .

وقد كان يشير بذلك الى مشكلتين اثنتين قال إن الإسلام قادر على حلهما . هما مشكلة التفرقة العنصرية ومشكلة الخمر .

ثم أردف يقول : « اما في المستقبل البعيد فيمكن التكهن باحتمال قيام الإسلام بالإسهام في أوجهٍ جديدةٍ للدين . وهذه الاحتمالات المتعددة تتوقف على الوجهة السعيدة التي سيتمخض عنها وضع الإنسانية الحاضر .

« هناك من يفترض مقدما ان الخليط المتنافر الذي نتج عن غزو الغرب للعالم سيطور تدريجيا وسلميا الى تركيب متجانس . وسيشكل هذا التركيب بدوره . تدريجيا وسلميا أيضا . نوعا من الإبداع الجديد .

« وهذا الافتراض المسبق . على كل حال . يقوم على نظرية لا يمكن التحقق منها . قد تبررها الأحداث في المستقبل . وقد لا تبررها أبدا . وقد ينتهي الخليط الى تركيب متجانس وقد ينتهي أيضا بانفجار مدمر .

« وفي حالة وقوع مثل هذه الكارثة سيكون للإسلام دور مختلف تماما . وهو دور العنصر الفاعل في ردة فعل عنيفة تقوم بها البروليتاريا العالمية للشعوب المسحوقة ضد أسيادها الغربيين » .

وهكذا حصر توينبي مستقبل الاسلام في ثلاث نقاط . اثنتان منها أكثر احتمالا وهما القضاء على مشكلة العنصرية والقضــــاء على مشكلة الخمر . والثالثة غير مؤكدة في نظره . وهي الإسهام في اوجهٍ جديدةٍ للدين . والبديل منها هو قيادة ردة الفعل العنيفة التي يخشى توينبي حدوثها من « البروليتاريا العالمية للشعوب المسحوقة ضد أسيدها الغربيين » .

ولقد كان حرياً بالمؤرخ الشهير . الذي يتعرض لكتابة تاريخ شامل للبشرية . أن يكون أكثر موضوعية وعمقا وهو يتناول موضوعا له أهمية خاصة كموضوع « الاسلام والغرب والمستقبل » .

ان حصر الاسلام في هذه النقاط الثلاث . ما كان منها راجحا في نظره وما كان غير مؤكد الوقوع . امر لا تؤدي اليه النظرة الموضوعية الخالصة . فضلا عن النظرة المتعمقة التي ينبغي أن يتحلى بها من يتعرض لكتابة تاريخ البشرية .

فلماذا هذه النقاط بالذات ؟ . .

وأي شيء في نصوص الاسلام أو روحه أو تاريخه يجعله محصورا في هذه النقاط وحدها . ويجعل احتمالات نجاحه مقصورة عليها ؟ . .

واذا كان توينبي يرى أن الاسلام قادر على حل المشكلة العنصرية ومشكلة الخمر . مع انهما من أعتى المشاكل التي يواجهها العالم المعاصر وأعصاها على الحل . فلماذا لا يستطيع الاسلام ـ مثلا ـ أن يدلي بدلوة في حل مشكلة الفوضى الجنسية التي تجتاح العالم اليوم . أو مشكلة تفكك الأسرة . او مشكلة الجنوح بين الأحداث (Delinquency) أو مشكلة شعور الشباب بالقلق والضياع . . أو غير ذلك من المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تواجه الأجيال المعاصرة ؟

على أن شأن الاسلام في الحقيقة ليس محصورا في تقديم حلول لتلك المشكلات التي ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر. فهذه ـ أو غيرها ـ ليست الا أعراضا للمشكلات الجذرية. ومهمة الاسلام الحقيقية هي التعرض لتلك المشكلات الجذرية وتقديم الحلول لها . لكي لا تؤدي الى تلك المضاعفات التي أرهقت البشرية اليوم . سواء في الغرب أو في العالم الذي غلب الغرب عليه.

إن القضية الجذرية الأولى في حياة البشرية كانت . وما تزال . وستظل الى قيام الساعة هي قضية العبادة او قضية المعبود.

من المعبود على وجه اليقين؟ وعلى أية صورة يعبد؟..

ولقد مرت على البشرية فترة من الزمن ـ في الغرب خاصة ـ كان عدد من الكتاب والمفكرين يقولون للناس : دعكم من قضية العبادة وقضية المعبود . لأنها قضية لا طائل وراءها. عيشوا حياتكم واستمتعوا بها . ولا تعبدوا ـ إن شئتم ـ شيئا على الاطـــلاق.

وظن هؤلاء الكتاب والمفكرون أنهم بذلك يقدمون الحل النهائي للمشكلة . ويمنحون البشرية أكبر قدر متاح من السعادة في الأرض . ويعطون الناس الفرصة التي لم تتح لهم من قبل لكي يعيشوا حياتهم على أفضل وجه بعيدا عن أغلال الدين.. ولتذهب قضية العبادة الى الشيطان.

وهذا اللون من التفكير يشتمل على وهمين كبيرين في آن واحــــد.

فأما الوهم الأول . الذي ربما لم يكن واضحا لكل الناس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر حين كانت هذه الصيحات تتعالى في الغرب . هو الظن بأن الإنسانية ستسعد وستنطلق بناءة حين تنبذ الدين.

ولقد تقدم الغرب بالفعل تقدما علميا وتكنولوجيا هائلا بعد نبذه للدين . فساعد ذلك على تمكن هذا الوهم من قلوب الناس . وغفل الناس عن أن الدين في ذاته لم يكن هو الذي عوقهم عن الانطلاق من قبل . إنما هي تفسيرات بشرية خاطئة هي التي عملت في القرون الوسطى المظلمة ـ في أوروبا ـ على تعويق حركة البشر نحو النهوض والتقدم . كما غفلوا عن حقيقة أهم من ذلك . هي أن التقدم العلمي والتكنولوجي اللذين حصلت عليهما أوروبا بعد أن نبذت دينها ليس هو المقوم الوحيد للحياة . وليس هو المقوم الأول ! وأنه وحده لا ينشيء حياة بشرية سليمة ! وتلك هي الحقيقة التي أخذ الناس في الغرب يدركونها بوضوح متزايد في الوقت الحاضر . حين ادركوا ان الفراغ من القيم الروحية هو المسئول الأول عن حالات الـقلق والاضطراب والجنون والانتحار والأمراض النفسية والعصبية . وعن شعور الشباب خاصة بالحيرة والضياع . وهي كلها أمور تهدد البشرية في أمنها وسلامتها ورفاهيتها على الرغم من كل التقدم المادي الذي حصلت عليه في القرنين الأخيرين .

أما الوهم الثاني فهو الظن بأن الإنسان يستطيع أن يلقي بقضية العبادة الى الشيطان ويعيش بلا عبادة على الإطلاق ! وهو وهم ساذج لا يستطيع أن يسيغه من يدرس التاريخ البشري منذ بداياته المعروفة حتى وقتنا الحاضر. «فالعبادة» ـ في أي صورة كانت ـ لم تنقطع قط من حياة «الانسان» في القديم أو الحديث. وحتى حين يقول الإنسان لنفسه : لن أعبد شيئا على الإطلاق . فإنه لا يكون بذلك قد تخلص من قضية العبادة كما يتوهم . إنما يكون فقط قد غيّر المعبود ! وجعل نفسه ـ او هواه ـ إلها معبودا تسير حياته بمقتضاه !

إن العبادة ليست محصورة في شعائر التعبد من صلاة أو نسك

أو تقديم قرابين كما يتبادر الى ذهن الناس أحيانا حين يتحدثون عن العبادة . فما ذلك الا جانب واحد من جوانب العبادة او شكل واحد من اشكالها . ولكن العبادة في جوهرها هي الطاعة والاتباع . مع الإيمان بأن المطاع واجب الطاعة لذاته لأي سبب من الأسباب .

والعبادة بهذا المعنى جزء لا يتجزأ من كيان الإنسان ووجوده على الأرض . لأنها جزء من مكونات نفسه . ولا يوجد على هذا المعنى انسان لا يعبد . وان زعم لنفسه غير ذلك . ذلك أن الانسان عابد بفطرته . رضي أوكره . وادرك ذلك بوعي أو لم يدرك . وانما الذي يتغير من إنسان لإنسان . او من حالة لحالة . هو ماهية الإله المعبود أو الصورة التي يعبد بها ذلك الإله . فهناك من ناحية انسان يعبد الله وانسان يعبد الها آخر ـ او آلهة اخرى ـ غير الله . أيا كان اسمها وصفتها وطبيعتها . وهناك من ناحية أخرى عبادة صحيحة لله وعبادة منحرفة أو ضالة . . ولا تخرج حياة البشرية ـ في جميع أحوالها ـ عن حالة من هذه الحالات !

والاسلام يعلمنا هذه الحقيقـــــة .

فان القسم الأكبر من القرآن . سواء ما نزل منه في مكة أو ما نزل في المدينة معنى بهذه القضية : من هو الاله الذي يستحق العبادة . وعلى أي صورة ينبغي ان يعبد . مع ابراز تلك الحقيقة المشار اليها . وهي أن الانسان عابد في كل حالة من حالاته . فاما أن يكون عابداً لله . واما أن يكون عابداً لشيء آخر مع الله أو من دون الله . وكلاهما سواء !

ويعلمنا الاسلام ان الله خالق هذا الكون ومدبر امره هو الذي يستحق العبادة وحده دون شريك . ويفتح بصيرتنا وعقولنا على آيات الله في الكون لنتدبرها ولنعرف من خلال تدبرنا لها انه لا يمكن ان يكون لهذا الكون الا خالق واحد ذلك ان التناسق الملحوظ في بنية هذا

الكون وانتظام حركته الدقيقة لا يمكن ان يتأتى اذا اشتركت أكثر من مشيئة واحدة في بنائه وتسييره : «لو كان فيهما[١] آلهة الا الله لفسدتا[٢]» «إذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض[٣]» «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر . هل ترى من فطور؟»[٤]

فاذا لم يكن في الإمكان أن يصدر هذا الكون عن مشيئتين مختلفتين . ولم يكن ثمة إلا خالق واحد . فإنه هو وحده الذي يستحق العبادة . وكل من عداه من اشياء وكائنات هي خلق من خلق الله لا تستحق ان تعبد مع الخالق أو من دونه . ومن ثم فعبادتها باطلة من أساسها . ولا يليق بإنسان عاقل ان يتوجه إليها بالعبادة .

فاذا تقررت هذه الحقيقة فإن القرآن ينتقل الى القسم الآخر من القضية وهو بيان الصورة الصحيحة لعبادة الله . فيقرر توحيد العبادة كما قرر وحدة الألوهية من قبل .

إن العبادة الصحيحة لله تتمثل في جانبين متكاملين لا ينفصل أحدهما عن الآخر . ولا يغني أحدهما عن الآخر . تقديم شعائر التعبد لله وحده دون شريك . واتباع ما أنزل الله وتحكيمه في واقع الحياة .

فالصلاة لصنم أو شيء او شخص او يقديم القرابين إليه أو توجيه الدعاء إليه مفسد للعقيدة ومفسد للعبادة . واتخاذ منهج للحياة غير المنهج الرباني هو كذلك مفسد للعقيدة ومفسد للعبادة على قدم سواء .

وبهذه الطريقة تتوحد العبادة ويتوحد الاتجاه .

---

(١) أي في السماوات والأرض – (٢) سورة الأنبياء «٢٢» –
(٣) سورة المؤمنون «٩١» – (٤) سورة الملك «٣»

فالإله الذي يتوجه اليه الانسان في صلاته ونسكه . هو ذاته الإله الذي يتوجه إليه وهو يتعلم . وهو ينشط في طلب الرزق . وهو يسعى لاستغلال طاقات الكون لتعمير الأرض . وهو يأكل ويشرب ويمارس نشاطه الجنسي . وهو يتعامل مع زوجته وأولاده في داخل الأسرة . ومع غيره من الأفراد في المجتمع . ومع غيره من المجتمعات والشعوب والدول في السلم او في الحرب سواء : «قل : ان صلاتي ونسكي . ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له» (سورة الأنعام : ١٦٢ _ ١٦٣).

وليس مقتضى ذلك أن يذكر اسم الله بلسانه وهو يقوم بكل واحد من هذه النشاطات المتعددة . ولا أن يكتب اسمه _ تعالى _ على الورق الذي يستخدمه في تدوين ما يتعلق بهذه الأشياء. إنما مقتضاه الحقيقي أن يذكره بقلبه ووجدانه الى جانب ذكره بلسانه . وأن تكون هناك صورة عملية واقعية لهذا الذكر . هي الالتزام في كل ذلك بأوامر الله . واوامر الله _ في الاسلام _ قد تعلقت بهذه الأمور كلها وبينت في شأنها ما يحل وما يحرّم . وما يباح وما لا يباح .

وحين يحدث ذلك فإن شيئا ضخما جدا يحدث في حياة الانسان .

يحدث باديء ذي بدء أن يقدم الإنسان الى خالقه العبادة الصحيحة الواجبة له . فإن الإنسان لا يقدر الله حق قدره إذا عبده في ساعة من نهار في صلاة او نسك ثم انصرف عن عبادته بقية يومه وبقية عمره ! والله يقول : «وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون» (سورة الذاريات : ٥٦) بذلك المعنى الواسع للعبادة الذي يشمل الصلاة والنسك والمحيا والممات . ومن ناحية أخرى يكون هذا بمثابة عبادة إلهين اثنين : إله يعبد في المعبد بالصلاة والنسك . واله آخر (او الهة متعددة ولكنها في النهاية واحد) يعبد _ بالطاعة والاتباع _ في بقية شئون الحياة . والقرآن يقول : «وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد فإياي فارهبون» (سورة النحل : ٥١) .

واستشعار القلب البشري لعظمة الله الخالق ، وقدرته المعجزة ، المتبدية في خلق الكون على هذه الصورة البديعة من الدقة والانتظام والتناسق . وخلق الأحياء من نبات وحيوان وانسان . . كل ذلك يؤدي به ـ اوينبغي ان يؤدي به ـ الى عبادة هذا الإله العظيم بما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، ولا يتأتى هذا بعبادته عبادة طائرة في لحظة ، والانصراف عن عبادته بقية اليوم وبقية الحياة .

وبصرف النظر عن الجزاء الرباني على تلك العبادة ، فان « الشعور بالواجب Sense of Duty » يقتضي القيام بها تلقائيا أداءً للأمانات الى أهلها : « ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها » (سورة النساء : ٥٨) ومنذا الذي يستحق العبادة الدائمة الخالصة غير هذا الاله القادر العظيم ؟ . . .

ولكن الله من رحمته يتفضل على الناس بأنهم حين يؤدون اليه هذه الأمانة وهي العبادة بمعناها الواسع الشامل ، أوبمعناها الكلي الموحد ، فهو يثيبهم عليها جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ويؤمّن لهم مستقبل حياتهم كله بعد الموت ، وهي الفترة الأطول في حياة الانسان ، والاجدر بأن يسعى الى تأمينها من كـل سـوء .

أما هنا في الحياة الدنيا فإن توحيد العبادة يصنع أشياء كثيرة مهمة في حياة الانسان .

فهو أولا يمنحه الطمأنينة النفسية التي يفقدها المرء خارج نطاق الإيمان ، حيث لا تستطيع ان تمنحه إياها كل عقاقير « السوما » ولا الخمر ولا المخدرات ، ولا الإغراق في اللهو أو المتاع الحسي ، فهذه كلها تؤكد وجود الحالة التي يريد الإنسان أن يهرب منها ، ولكنها لا تزيلها ولا تعالجها . إنما تاتي الطمأنينة من الإيمان ومن ذكر الله كما يقرر القرآن : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله الا بذكر الله تطمئن القلوب » (سورة الرعد : ٢٨) .

وهذه الطمأنينة ليست هي الاستسلام البليد للأحداث.. إنها الضرب في مناكب الأرض سعيا وراء الرزق. والجهاد في سبيل الله لإقرار العدل الرباني في الأرض ومجاهدة كل نوع من أنواع الظلم الذي يبغضه الله، وطلب العلم، وتعمير الأرض.. مع الاطمئنان في ذلك كله الى الله. لأنه هو الذي بيده كل شيء، واليه مصير كل شيء. ولان المؤمن مطمئن الى أن الله لا يريد به ـ دائما ـ الا الخير. ومن هنا يحدث في واقع الأرض سعي وراء الرزق بغير قلق، وطلب للعلم بغير قلق. وجهاد في سبيل الله بغير قلق. وحضارة غير قائمة على القلق. كما حدث ذلك بالفعل مرة في التاريخ على أيدي الأجيال الأولى من المسلمين.

ولقد كان كتّاب ومفكرون الى عهد ليس ببعيد، يمتدحون هذا العصر بأنه عصر القلق.. ويسمونه القلق الخلاق! ولكنهم عادوا فعرفوا انه جرعة سامة ولو كان في أبسط مقاديره! وأن التوفز الذي يحدثه ليس نشاطا حقيقيا، ولا خلاقا؛ انما هو عرض مرضّي لا يلبث أن يؤدي الى مضاعفات أخرى تفقد الانسان أمنه وصحته النفسية.

وقال كتاب آخرون ومفكرون إنه امر ملازم للحضارة سواء كان ضارا في ذاته او نافعا. وهذا تشخيص تنقصه الدقة العلمية. فهو ملازم للحضارة التي تعيش في عالم المادة وتهمل جانب الروح. لأنها من جهة تفقد المصدر الذي يعطي الطمأنينة الحقة، ومن جهة أخرى توزع النفس الإنسانية وتمزقها بين إلهين اثنين: إله يعبد في المعبد فترة قصيرة من الوقت، واله آخر يحكم واقع الحياة. فضلا عن كون هذا الإله الأخير، وهو الأكثر مصاحبة للإنسان، إلها صلداً لا يرحم ولا يوحي لعباده بالطمأنينة والاستقرار.. وفي واقع التاريخ وجدت حضارة مزدهرة من قبل لا تحس بالقلق القاتل، لأنها كانت تعيش مطمئنة بذكر الله!

وهو ثانيا يوحِّد في داخل النفس وفي واقع الحياة بين أشياء كثيرة تفرّق بينها انحرافات البشرية المعاصرة بغير وجه حق . والأصل فيها هو الترابط وليس الانفصال .

يوحّد بين الروح والمادة . وبين الجسد والروح .
ويوحّد بين الدين والعلم وبين الدين وعمارة الأرض .
وبين الدين والحياة .
ويوحّد أخيرا بين الدنيا والآخرة .

ولنتكلم كلمات قليلة عن كل لون من ألوان الوحدة هذه التي يقدمها الاسلام .

فأما الروح والجسم . أو الروح والمادة فهما أصيلان في التكوين البشري : «إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشرا من طين . فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين» «(سورة ص : ٧١ ـ ٧٢) .

وهما مترابطان منذ مولد الانسان بغير افتراق . وتاريخه كله مصداق هذه الحقيقة . ولكن جاهليات التاريخ تنحو دائما الى التفريق بينهما باعطاء كل منهما طريقا يفترق عن طريق الآخر . وبتضخيم جانب منهما على حساب الجانب الآخر .

بعض جاهليات التاريخ تضخم جانب الروح على أساس أنها الجوهر الحقيقي في الانسان . وتحتقر الجسد وتترفع عليه . وتنظر اليه على انه دنس غير خليق بالتكريم . إنما حقه الازدراء والتحقير . والارهاق والتعذيب ! كما تحتقر الجانب المادي من الحياة باعتباره هو الجانب اللاصق بالجسد . اي اللاصق بالطين !

وجاهليات أخرى تضخم جانب الجسد والمتاع الحسّي وتعتبر أنه هو الاصل . وأن الروح خيال جميل لا واقع له ! او امر ثانوي في

حياة الانسان ! أو معوق عن الانطلاق ! ومن ثم تروح تهتم اهتماما بالغا بالانتاج المادي . والتعمير المادي . وتكاد تهمل الانتاج الروحي وعمارة الروح .

وكلاهما يقيم وجوده على أساس باطل . هو افتراض وجود ذلك التناقض بين الجسد والروح الذي لا سبيل الى التوفيق بين عنصريه الا بكبت أحدهما لحساب الآخر. فاما ان يكبت الجسد لتنطلق الروح . واما أن تكبت الروح ليتحقق الانطلاق المادي .

ولكن الذي يحدث في عالم الواقع أن الكبت ـ في كلتا الحالتين ـ لا يؤدي الى الخير.

فكبت الجسد وقتل حيويته ـ فضلا عن مخالفته للفطرة ـ يؤدي الى تعطيل الطاقات البشرية . والتأخر المادي والحضاري . والفقر والبؤس والكآبة والتشاؤم واليأس !

وكبت الروح وطمس شفافيتها يؤدي الى القلق النفسي من ناحية . والى السعار الجسدي الذي لا يرتوي مهما أغرق في الشهوات . والى التكالب على المتاع الأرضي الذي يؤدي حتما الى الصراع على نطاق الأفراد والجماعات والدول والشعوب !

وتلك كلها عوارض مرضية تدل على أن مخالفة للفطرة قد حدثت فنشأ عنها الاختلال .

والاسلام يعطي البديل المتوازن الذي يؤلف بين الروح والجسد ولا يقيم بينهما التناقض ولا الصراع !

انه لا يقرّ أصلا بوجود ذلك التناقض الذي لا سبيل الى التوفيق بين عنصريه .

نعم ان الجسد والروح عنصران مختلفان . ولكنهما ـ في الانسان ـ

ممتزجان . والاضطراب لا يحدث من اجتماعهما في الكيان البشري الموحّد . انما يحدث من طغيان أحدهما على الآخر بما يفقد الانسان توازنه الفطري الذي سواه به الله وعدله : «يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك» (سورة الانفطار : ٦ ـ ٧).

فالاعتدال ـ أي التوازن ـ هو في أصل الخلقة الربانية . ولكن الانسان بجهالته هو الذي يخل بهذا التوازن . وعندئذ يحدث الاختلال والاضطراب في كيان النفس وفي واقع الحياة . كما يقرر الواقع المشهود . وكما بين كاتب مثل ألكسيس كاريل في كتابه البديع «الانسان ذلك المجهول L'Homme Cet Inconnu» ـ وهو طبيب عالم . لا شاعر ولا فنان ! ـ حيث بيّن أن جهلنا الشديد بطبيعة الانسان . واهمالنا العنصر الروحي فيه . وانشاءنا نظما اقتصادية واجتماعية وسياسية مبنية على هذا الجهل . هو الذي يجعلنا ننحدر انسانيا كلما تقدمنا علميا وحضاريا !

والاسلام هو الذي يعيد للانسان توازنه واعتداله الذي خلقه به الله . ويصنع ذلك باجراء واقعي بسيط ولكنه بعيد الأثر : هو إشراك الروح والجسد في كل أمر من أمور الحياة !

الصلاة ليست تسبيحة روحية فحسب . ولكنها الى جانب ذلك حركات يقوم بها الجسد بالقيام والركوع والسجود . الى جانب تدبر فكري واع يقوم به العقل في الآيات المستخدمة في الصلاة .

والطعام والشراب والجنس ـ على الجانب الآخر ـ ليست حركات جسدية خالصة . ولكنها الى جانب ذلك توجه روحي . يُقرأ عليها اسم الله لتزكيتها . ويُلتزم فيها بالحلال والحرام . فتصبح موصولة بالله .

وأي عمل من أعمال الانسان على الاطلاق لا بد أن يقع بين هذين الطرفين . ومن ثم يدخل في هذا النظام الشامل الذي يربط الروح بالجسد ، ويربط الروح بالمادة ويربط الأرض بالسماء !

كذلك أمر الدين والعلم .

إن في الانسان نزعة فطرية الى العبادة ـ أي الى التدين ـ حتى ولوكانت العبادة فاسدة ومنحرفة عن الحق ! وفيه كذلك نزعة فطرية الى التعرف على أسرار الكون المادي من حوله . واخضاعها لسيطرة الانسان . وهاتان النزعتان أصيلتان في الفطرة على درجة واحدة من الأصالة ، ثم انه لا يوجد بينهما تناقض ولا تنافر ولا صراع . ولكن انحرافات البشر هي التي يمكن أن تقيم الصراع والفرقة بين هاتين النزعتين الفطريتين . وقد حدث هذا الانحراف بالفعل في أوروبا في بدء النهضة عندما قام رجال الدين يحاربون العلم والعلماء . ويهددون علماء مثل كوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو بالحرق والتعذيب والقتل ، لغير شيْ سوى أنهم نادوا بافكار علمية أثبتت الأيام صحتها فيما بعد .

وقد يكون خارجا عن موضوعنا ان نقول ان هذا الصراع كان منشؤة العصبية الدينية الحقيقة ، فان رجال الدين هؤلاء قد حاربو هذا العلم لأنه ـ كما أثبت التاريخ ـ كان مأخوذا عن علماء المسلمين !

وأياً كان السبب في هذا الصراع ، فلم يكن الدين السماوي المنزل هو السبب فيه . انما كان ناشئا عن انحرافات بشرية بحتة ، لا علاقة لها بالحق المنزل من عند الله . وكلما امتد خط الزمن زادت الفرقة وزاد الصراع ، حتى اصبح ذكر اسم الله في البحث العلمي يعتبر في حس الرجل الأوروبي العادي اخلالا بروح البحث العلمي ، وخلطا لا ينبغي أن يحدث بين عنصرين غير قابلين للامتزاج كما يقول

داروِن في احد كتبه : «ان تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الارادة الالهية يكون بمثابة ادخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت !

هذا التصور الخاطئ للموضوع ـ حتى وان كان امرا واقعا في اوروبا ـ لا يمضي في طريقه دون إخلال بتوازن الانسان وامنه . انه يحدث صراعا وتمزقا داخل النفس . بين عنصرين أصيلين فيها . كل منهما يحتاج الى اشباع . فحين يشعر الفرد ان اشباعه لحاجته الروحية امر خارج عن نطاق العلم . واشباعه لحاجته العلمية امر خارج عن نطاق الدين . ويشعر في الوقت ذاته انهما طريقان مفترقان ولا يلتقيان يكون في الحقيقة عابداً لالهين متنافرين . كل منهما يتطلب من عابده سلوكا ومنهجا وطريقة تصور مختلفة عن متطلبات الاله الاخر . في الوقت الذي لا غنى له عن عبادة الالهين ! فيتمزق بينهما شعر او لم يشعر . ويكون هذا عنصرا من عناصر القلق في كيانه النفسي . . ثم إذا غلب على أمره في هذا الصراع فهو في الغالب يخضع لاله العلم . لانه هو الذي يزوده بمطالب حياته اليومية . وينبذ اله الدين لانه ـ في حسه ـ متعلق بعالم اخر ليس حاضرا في هذه اللحظة . هذا إن آمن بوجود هذا العالم الاخر على الاطلاق !

والاسلام ـ في بساطته الفطرية ـ يزيل ذلك التناقض باجراء واقعي بسيط وبعيد الأثر في ذات الوقت .

ان الله الذي يتعبد اليه الانسان في صلاته . هو ذاته الذي منح الانسان المعرفة اول مرة . وهو الذي يدعوه الى التعلم والمعرفة الآن : «وعلم ادم الاسماء كلها» (سورة البقرة : ٣١) «اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم» (سورة العلق : ١ ـ ٥) ويدعوه الى التدبر في اسرار الكون : «ان في خلق السموات والأرض

واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الأرض بعد موتها . وبث فيها من كل دابة . وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لايات لقوم يعقلون» (سورة البقرة : ١٦٤) ويحدّثه بأن الله سخر له ما في السماوات والأرض جميعا «وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه» (سورة الجاثية : ١٣) وما عليه الا ان يتعلم السنن الكونية التي يجري بها الله أمور هذا الكون ليحقق هذا التسخير بجهده الجسمي والعقلي : «هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه» (سورة الملك : ١٥) .

وبذلك يتوحد المتجه ويتوحد الاله !

ليست المعرفة البشرية مسروقة من الله قهرا عنه كما تصورها أسطورة بروميثيوس . انما هي منحة ربانية وهبها للانسان . ولا يحتاج الانسان ان يعصي الله ليتعلم . لأن الله هو الذي يأمره بالمعرفة ! والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : «طلب العلم فريضة» ولا يشعر الانسان بالاثم حين يسخر طاقات السماوات والأرض لمنفعته ولا انه يصنع ذلك تمردا على ارادة ربانية تريد ان تكبته وتسحقه كما تصور الاساطير الاغريقية علاقة الانسان بالالهة . لأن الله هو الذي سخر له طاقات هذا الكون وامره بعمارة الأرض : «هو أنشاكم من الأرض واستعمركم فيها» (سورة هود : ٦١) ولا يشعر اخيرا انه يعبد الهين متنافرين لكل منهما مطالب تختلف عن مطالب الاخر. انما هو اله واحد. طلباته واحدة في كل حالة. طلباته في الصلاة هي تقوى الله . وطلبته في العلم كذلك هي تقوى الله . فلا تستخدم ثمرات هذا العلم في الطغيان في الأرض بغير الحق . كما تستخدم الطاقة الذرية اليوم . ولا تستخدم في افساد العقائد كما استخدمت ايحاءات الداروينية في تحطيم العقيدة . ولا تستخدم في افساد الاخلاق كما

تستخدم حبوب منع الحمل لتشجيع الفاحشة وكما تستخدم وسائل الاعلام في نشر الجريمة واثارة الشهوات !

كذلك لا يشعر الانسان ان الجهل والعجز فقط هما اللذان يخضعانه لله كما يقول جوليان هكسلي في كتابه "Man in the Modern World" وانه حين يتعلم ويسيطر على البيئة يتمرد على الله ويصبح هو الله. انما يزداد قربا من الله وتقوى كلما ازداد علما : «انما يخشى الله من عبادة العلماء» «سورة فاطر : ٢٨) ويطلب من ربه أن يزيده من العلم : «وقل : رب زدني علما» (سورة طه : ١١٤) وبذلك يظل قلبه مرتبطا بالله وهو يتعلم . ويسير في الأرض مطمئنا وهو يسخر ثمار العلم للخير كما يقف مطمئنا الى الله في الصلاة .

كذلك يوحد الاسلام بين الدين والحياة .

لقد خرجت الحياة عن نطاق الدين في أوروبا لظروف محلية ليست في اصل الدين . وتصور الغربي ان الدين علاقة بين العبد والرب محلها القلب . وان الحياة جهد بشري خالص لا علاقةلله به هو تصور خاطئ جاء به الغربي من عند نفسه لا بأمر من وحي السماء . واذا كان الغربي يحاول ان يسند تصوره بذلك بالقول المنسوب الى المسيح عليه السلام : « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فانه لا يتصور أبدا أن يقول المسيح للناس ان الله هو رب السماء وقيصر رب الأرض يتصرف فيها كما يشاء ! فذلك مناقض لأصل الدين كله . الذي يقول ان لله ملك السماوات والأرض . وان قيصر ومَن في الأرض جميعا ينبغي ان يخضعوا لحكم الله . انما معنى العبارة ـ ان ثبتت نسبتها للسيد المسيح ـ هي أنه لا يأمر اتباعه ـ يومئذ ـ باعلان الحرب على القيصر . ويوجههم أن يؤدوا له الضرائب التي يطلبها الى حين قيام الدولة التي تحكم بما انزل الله وتخضع القيصر

ذاته لحكم الله . ومثل ذلك موجود في الاسلام فقد قال الله للمسلمين في مكة قبل قيام الدولة الاسلامية «كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» (سورة النساء : ٧٧) ولكن لم يفهم أحد من المسلمين من هذا التوجيه أن الدين علاقة خاصة بين العبد والرب محلها القلب . وأن واقع الحياة اليومية يحكمها القيصر او غيره من المشركين كما يشاءون ! انما كان هذا الأمر لفترة مرحلية . جاء بعدها اقامة المجتمع الاسلامي والدولة الاسلامية واخضاع الحياة كلها لحكم الله . وصاحب ذلك انزال تشريعات مفصلة تحكم كل واقع الحياة .

وقد كان من نتيجة التفسير البشري الخاطئ لنطاق الدين ومقتضياته ان ظلت الحياة الواقعية تزداد بعدا عن الدين على الدوام بمرور الزمن حتى خرجت عن نطاقه نهائيا في العصر الحديث . فسارت السياسة على النهج الميكافيللي الذي يبرر الكذب والخديعة والنفاق والغش والقتل والاغتيال والنصب والاحتيال في عالم السياسة وكله حرام في دين الله . وسار الاقتصاد على الربا وهو محرم في دين الله . وسارت العلاقات الاجتماعية على النفاق الاجتماعي مع العزلة الفردية الشعورية البغيضة التي يتحدث عنها الدوس هكسلي في كتابه "Texts and Pretexts" فيقول ان كل انسان أصبح كأنه جزيرة وحده لا يربطها شيء بالجزر الاخرى المتناثرة في محيط الحياة وذلك مخالف لأمر الدين . وسارت العلاقات الجنسية على إباحة الفاحشة وجعلها أصلا معترفا به وهي محرمة في دين الله .

ثم كان من نتائج ذلك كله ما كان في واقع الأرض من فساد وتحلل واضطراب .

ان مخالفة قوانين الفطرة كما يقول ألكسس كاريل في كتابه « L'Homme Cet Inconnu » لا يمكن ان تمضي بغير عقاب صارم . لانها حاسمة كقوانين الطبيعة ! وهذه الفوضى وهذه الاضطرابات التي تغمر وجه الأرض اليوم هي العقوبة الصارمة على مجافاة قوانين الفطرة التي خلقها الله .

والعليم بهذه الفطرة هو خالقها سبحانه وتعالى وليس الانسان ! بل ان الانسان أجهل ما يكون بنفسه كما يقرر الكسيس كاريل بحق . اذ يقول ان الانسان قد تعلم أشياء كثيرة جدا عن الكون من حوله ولكن جهله بنفسه جهل أصيل لا سبيل الى التغلب عليه . لانه يرى نفسه من خلال شهواته واهوائه .

والله العليم بهذه الفطرة وبما يصلح لها ويصلحها . هو الذي نزل هذا الدين ليحكم حياتها الواقعة كما يحكم صلاتها الخاصة بالله سواء بسواء . وباجراء واحد مبسط وعميق الاثر يربط الاسلام بين الدين والحياة كما يربط بين الدنيا والاخرة في ذات الوقت .

فالدين عقيدة وشريعة . عقيدة تحكم صلات القلب بالله . وشريعة تحكم واقع الحياة باسم الله . فيكون المتجه في الحالتين الى الله . ويكون المعبود الها واحدا . يعبد في المعبد في ساعة الصلاة . ويعبد هو ذاته بتنفيذ شريعته في بقية شئون الحياة . وتكون السياسة بذلك سياسة اسلامية . والاقتصاد اقتصادا اسلاميا وعلاقات المجتمع علاقات اسلامية . وعلاقات الجنسين علاقات اسلامية والفكر والفن اسلاميين . وكذلك بقية الوان النشاط البشري . وتتنزل الشريعة شاملة للسياسة والاقتصاد والاجتماع وعلاقات الاسرة وعلاقات الرجل والمرأة وعلاقات الفكر وعلاقات العلم وعلاقات الفن . كما تشمل العلاقات الدولية في السلم والحرب سواء .

ويعلم الله منزل هذه الشريعة ان هناك أمورا ثابتة في حياة البشر وأمورا أخرى تنمو وتتغير . ولا يريد لها الله سبحانه وتعالى أن تجمد وتقف عن النمو . فينزل في شريعته للامور الثابتة تفصيلات كاملة غير قابلة للتغيير . وللامور المتغيرة اصولا ثابتة ولكنها تسمح بالنمو المستمر في داخل اطارها . ويتم ذلك باجتهاد العقل المؤمن لاستنباط الاحكام المتغيرة من الشريعة الثابتة بما يواكب النمو السليم لركب الحياة .

وهو الجهد الضخم الذي قام به فقهاء الاسلام خلال التاريخ.
وبذلك يتم الترابط الدائم بين الدين والحياة: لا تجمد الحياة على صورة واحدة ولا تخرج في نموها كذلك عن اطار الدين.
كما قال الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «يجدّ للناس من الأقضية بقدر ما يجد لهم من القضايا».

ويوحد أخيرا بين الدنيا والآخرة.

وعن طريق هذا الترابط يتم كذلك توحيد طريق الدنيا والآخرة.

فقد نشأ عن افتراق الدين والدنيا في انحرافات البشرية ان انفصلت الدنيا عن الآخرة في حس الناس. وأصبحت هناك أعمال مستقلة تعمل من أجل الدنيا وحدها. وأعمال أخرى تعمل من أجل الآخرة وحدها.. ولا يلتقيان!

والاسلام ـ على منهجه ـ يوحّد طريق الدنيا والآخرة ويجعلهما طريقا واحدا لا طريقين! طريق أوله في الدنيا وآخرة في الآخرة. ولكنه هو ذاته بغير تغيير!

«وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا» (سورة القصص: ٧٧).

«قل: من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل: هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» (سورة الأعراف: ٣٢).

لا يوجد في الاسلام عمل هو للدنيا وحدها او للآخرة وحدها ولكنه دائما لهذه وتلك في ذات الوقت!

الصلاة التي يظن أنها للآخرة وحدها هي للدنيا كذلك في ذات الوقت لان الله يقول: «ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر»

(سورة العنكبوت : ٤٥) والنهي عن الفحشاء والمنكر لا بد ان يكون هنا في الدنيا ! أي أن للصلاة ثمرة مقصودة تتم هنا في الحياة الدنيا ويثاب عليها في الآخرة .

وعلاقات الجنس التي يظن انها للدنيا وحدها مرتبطة في حس المسلم بالآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «وان في بضع أحدكم لأجرا (أي في اتصاله بزوجته) قالوا : يا رسول الله ! إن أحدنا لياتي زوجه شهوة منه ثم يكون له عليها أجر؟ ! قال : أريتم لو وضعها في حرام . أليس عليه فيها وزر؟ قالوا : بلى ! قال : فاذا وضعها في حلال فله عليها أجر !» وهكذا تتصل الدنيا بالآخرة في حس المسلم عن طريق التزامه في كل شان من شئونه بما انزل الله فيعمل العمل في الدنيا ـ من أجل الدنيا ـ وقلبه متطلع الى ثواب الله في الآخرة ما دام يعمل بمقتضى اوامر الله .

* * * *

